تحالف الحضارات بين التاريخ والأيديولوجيا: الخصوصية الإسبانية

عبد الواحد أكمير(*)

كلية الآداب، شعبة التاريخ، الرباط.

مقدمة

في ١١ آذار/مارس ٢٠٠٤، وقعت تفجيرات مدريد التي كان وراءها إرهابيون مرتبطون بتنظيم القاعدة، وهي التفجيرات التي ساهمت إلى حدّ كبير في سقوط حكومة الحزب الشعبي ووصول الاشتراكيين إلى الحكم، بحيث اعتبرها الناخب عقاباً لإسبانيا على مشاركتها في غزو العراق بجانب الولايات المتحدة وإنكلترا. وكانت الحكومة قد ضربت بعرض الحائط المظاهرات الحاشدة التي نظمت في مختلف المدن الإسبانية ضدّ مشاركة إسبانيا في الحرب. وفي نهاية نيسان/أبريل من نفس السنة، وبعد أقل من أسبوع على توليه السلطة، أعلن خوسي لويس ثباتيرو، قراره بسحب القوات الإسبانية من العراق، وكان بمثابة إشارة قوية للولايات المتحدة التي أدركت أنها فقدت أحد أبرز حلفائها في غزوها للعراق.

وسوف تعقب هذه الخطوة، خطوات أخرى من طرف إسبانيا الاشتراكية، ترمي بمجملها إلى إعادة العلاقات التاريخية التي كانت تربطها بالعالم العربي الإسلامي إلى سابق عهدها. ومن أبرز هذه الخطوات، إعلان ثباتيرو في الخطاب الذي ألقاه في هيئة الأمم المتحدة في شهر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤، عن مشروعه حول «تحالف الحضارات»، وهو المشروع الذي فاجأ الجميع، لأنه إلى ذلك التاريخ، كانت الثنائية الجدلية تتمحور حول «حوار الحضارات» ونقيضها «صراع الحضارات». وقد تبين من هذا المشروع أن التحالف الحضاري هو مستوى أرقى من الحوار الحضاري، **أولاً** لأن هذا الأخير يدعو إلى التحاور مع إمكانية الاختلاف، بينما يدعو الأول إلى ضرورة التحالف والاتفاق على مبادئ ومنطلقات،

(*) من مؤلفاته: **العرب في الأرجنتين: النشوء والتطور** (٢٠٠٠)، كما شارك في تقديم: **الوطن العربي وأمريكا اللاتينية** (٢٠٠٥)، و**الجاليات العربية في أمريكا اللاتينية: دراسة حالات المكسيك ـ التشيلي ـ البرازيل ـ البيرو ـ الباراغواي ـ الأرجنتين** (٢٠٠٦).

تجعلنا بالضرورة في صف واحد، في مواجهة عدو مشترك؛ **وثانياً** لأن تحالف الحضارات يعطي الأولوية للجانب السياسي والاقتصادي، بينما حوار الحضارات يعطيها للجانب الثقافي والفكري والأكاديمي.

أولاً: تحالف الحضارات وقطبا التناوب السياسي

قدم ثباتيرو أطروحته حول تحالف الحضارات، كنتيجة للهوة التي تعمقت بين الإسلام والغرب بعد تفجيرات ١١ أيلول/سبتمبر، وبعد أن تضخمت خطورة الإرهاب، وكذلك بعد النتائج المأساوية التي خلفها غزو أفغانستان والعراق، والتي أوجدت تشاؤماً عاماً في الرأي العام العالمي، أدرك معه العالم أن موجة التفاؤل التي أعقبت سقوط جدار برلين، ونهاية الماركسية والشيوعية، كان فيها الكثير من المبالغة، وأن مشاكل كثيرة تتعلق بالهوية لا تتماشى ومفاهيم الرأسمالية الغربية، تفرض نفسها كحقيقة، بحسب رأي أكسيمو كخال المستشار الخاص لرئيس الحكومة الإسبانية في مجال تحالف الحضارات الذي يؤكّد أن الحرب لن تقضي على العنف والإرهاب، بل تقدّم لهما المبررات من أجل الاستمرارية[١].

إن مشروع التحالف الحضاري هو مستوى أرقى من الحوار الحضاري، لأنه يدعو إلى التحاور مع إمكانية الاختلاف، ولأنه يعطي الأولوية للجانبين السياسي والاقتصادي.

ورغم أن المخاطب الأول هو العالم العربي الإسلامي، فإن مشروع ثباتيرو لا يقصي بقية الحضارات. وعن ذلك يقول: «إن تحالف الحضارات يعني أن أشخاصاً ينتمون إلى شعوب مختلفة، وثقافات مختلفة، وحضارات مختلفة، يتفقون في جعل صفتهم كأشخاص ينتمون إلى ثقافة كونية، فوق صفتهم كأشخاص ينتمون إلى ثقافة معينة، وإلى ديانة معينة، وإلى بلد معين»[٢]. ويعطي ثباتيرو لمشروعه بعداً مزدوجاً، فهو مشروع سياسي يربط العدالة الاجتماعية ومحاربة الفقر (يسميه التحالف ضدّ الفقر) بالأمن والاستقرار العالميين[٣]، وهو مشروع ثقافي يربط الثقافة والتعليم بمحاربة الإرهاب. وعلى غرار ثباتيرو بيّن وزير خارجيته «ميغيل أنخيل موراتينوس» أن مشروع تحالف الحضارات يرمي إلى: «تسخير كلّ الوسائل

---

(١) يرى كخال أن: «التدخل العسكري في العراق، وبالإضافة إلى ما كلفه من أرواح بشرية، كان وراء ظهور آلة متخصصة في إنتاج الإرهابيين الذين يتم تكوينهم في الميدان من خلال القتال اليومي الذي يسمح لهم بتطوير تقنياتهم وخططهم». انظر الحوار الذي أجرته معه أسبوعية: *La Mañana* (Maroc) (25 janvier 2006).

(٢) من الكلمة التي ألقاها رئيس الحكومة الإسبانية في القمة التي عقدتها جامعة الدول العربية في الجزائر (العاصمة)، في ٢٢ آذار/مارس ٢٠٠٥.

(٣) من أجل ذلك قامت الحكومة الإسبانية بخطوات عملية، على رأسها، الرفع من مساعدتها للبلدان الفقيرة من ٠,٣ في المئة من الناتج الداخلي الخام سنة ٢٠٠٤، إلى ٠,٥ في المئة سنة ٢٠٠٦. وقد شهدت حوالى أربعين مدينة إسبانية في ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، مظاهرات شارك فيها الآلاف، طالبت برفع المساعدات إلى ٠,٧ في المئة، وبإلغاء الديون الخارجية على البلدان الأكثر فقراً في العالم.

المتوافرة لنربح معركة الأفكار، ولنهمش سياسياً أولئك الذين يحاولون إيجاد الذرائع لتبرير ما لا يبرر، أي قتل الأبرياء»(٤).

والواقع أن مشروعاً مثل هذا، لم يكن مستغرباً أن يأتي من بلد مثل إسبانيا، يشكل حالة استثنائية في الغرب، تتمثل في ديانته وثقافته المسيحية، المتأثرة بحضارة عربية إسلامية طبعت الهوية الإسبانية لمدّة ثمانية قرون، وهذا ما يلخصه ثباتيرو على النحو التالي: «أقولها بِكُلّ تواضع، في الوقت الحاضر يمكننا كأسبان أن نعيد للغير، القليل من الكثير الذي أخذناه منهم، وأخص بالذكر منهم العرب؛ فمن خلال مفكريهم، وعلى رأسهم ابن رشد، تمكنا نحن الأسبان من بعث الفكر الكلاسيكي، ومن خلال شعرائهم وفنانيهم، تغذى جزء مهم من شاعريتنا»(٥).

لا يكتفي ثباتيرو في مشروعه هذا بالاستشهاد بالماضي الحضاري الأندلسي، كميراث مشترك بين إسبانيا والعالم العربي الإسلامي، بل يرى أن عدداً من الأفكار التي يقوم عليها تحالف الحضارات، يوجد في أعمال المفكرين والعلماء العرب من أمثال ابن خلدون الذي يَعتبر من شروط المؤرخ الذي لا يزيف التاريخ، التسليم بضرورة الاختلاف في قواعد السياسة، وفي المعتقدات، وفي طبائع البشر، وفي طبيعة الأشياء، وفي الأزمنة والأمكنة، ناهيك بالاختلاف بين الأمم. ويورد ثباتيرو في هذا السياق النصّ التالي لابن خلدون، وهو عنده، «عالم أندلسي عظيم»: «يحتاج صاحب هذا الفن (فن التاريخ)، إلى العلم بقواعد السياسة، وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم، والبقاع والأعصار والسير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق، أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منهما والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم»(٦).

ولإعطاء مشروعه هذا صبغة دولية، نجح «ثباتيرو» في إقناع هيئة الأمم المتحدة في تبنيه، بحيث عبر ما لا يقل عن أربعين بلداً عن دعمهم له. وكان من نتائج ذلك تعيين «مجموعة رفيعة المستوى» تضم سياسيين ومثقفين بارزين من عدد من البلدان الإسلامية والغربية، انكبت على العمل من أجل الخروج بحلول عملية، وتقديم تقريرها في الموضوع إلى الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة. وقد اختارت إسبانيا، صاحبة المشروع، كمخاطب رئيسي لها تركيا، لما تمثله من امتداد جغرافي وتاريخي وحضاري بين الإسلام والغرب، ولما تعيشه بسبب ذلك من أزمة هوية ربما لا تتكرر في أي بلد إسلامي آخر، وخصوصاً لوجود حكومة إسلامية في السلطة، تسعى جاهدة لتبديد مخاوف الغرب من الإسلام، ولإثبات عدم وجود تناقض بين هذه الديانة والديمقراطية.

---

(٤) من المقالة التي نشرها موراتينوس في صحيفة **لفانغوارديا** الإسبانية: *La Vanguardia*, 7/7/2005, وأعيد نشرها على موقع وزارة الخارجية الإسبانية على شبكة الإنترنت، في الملف المخصص لتحالف الحضارات.

(٥) من الكلمة التي ألقاها رئيس الحكومة الإسبانية في القمة التي عقدتها جامعة الدول العربية في الجزائر.

(٦) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **المقدمة** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣)، ص ٢٢. أورده ثباتيرو في خطابه في قمة جامعة الدول العربية.

وفي الوقت الذي يقدم فيه ثباتيرو مشروعه هذا والذي تبناه حزبه وحكومته جملة وتفصيلاً، نجد سلفه في رئاسة الحكومة الإسبانية خوسي ماريا أثنار، الرئيس الشرفي للحزب الشعبي، وهو الحزب الأول في المعارضة، وأعضاء آخرين من نفس الحزب، يتبنون خطاباً مناقضاً تماماً بشأن مشروع تحالف الحضارات، وهكذا لا يتردد أثنار في وصف المشروع بـ «الفكرة الغبية». وفي اليوم التالي لإلقاء ثباتيرو خطابه سالف الذكر أمام هيئة الأمم المتحدة (٢١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤)، ألقى أثنار محاضرة في جامعة جورج تاون الأمريكية[٧]، اعتبر فيها أن «مشكلة إسبانيا مع تنظيم القاعدة بدأت في القرن الثامن الميلادي»، وأنها سابقة بقرون لغزو العراق ولتفجيرات مدريد. وبعد أن شبه طارق بن زياد بأسامة بن لادن، اعتبر أن هناك فئة من المسلمين تحلم باحتلال الأندلس من جديد. هذا الخطاب نفسه يروج له أحد قادة الحزب الشعبي «غوستافو دي أريستيغي»[٨] الذي أصدر كتاباً بعنوان **الجهاد في إسبانيا: هاجس استرداد الأندلس**[٩]، ادعى فيه أن ما بين ٢٠ و٣٠ في المئة من المسلمين في العالم اليوم يحلمون باستعادة الأندلس لنشر الإسلام من جديد، وأنهم يسعون لتحقيق ذلك من خلال «الجهاد المسلح». وبطبيعة الحال فهذا الخطاب المسيس، يحاول أن يخفي كلّ شيء إيجابي يميز الإسلام اليوم، كما ميزّه خلال المرحلة الأندلسية، وهو خطاب تحت «غطاء الحرب الوقائية» التي طالما كررها قادة هذا الحزب، يعمل على شحن الرأي العام الإسباني ضدّ المسلمين، ويعتبر كلّ معتز بالحضارة الأندلسية من الأسبان، شخصاً يؤدي خدمة للمتطرفين من المسلمين «الذين يرغبون في استعادة الأندلس».

إن مشروع تحالف الحضارات، هو شيء مرفوض تماماً من طرف قادة الحزب الشعبي، على اعتبار أنه لا شيء يربط بين العالم العربي الإسلامي والغرب، يمكنه أن يسمح بذلك التحالف، وهذا ما يعبر عنه أثنار على النحو التالي: «كيف يمكن أن يكون هناك تحالف ونحن ندافع عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة، بينما يدافع العالم الإسلامي عما هو نقيض ذلك تماماً»[١٠]. وفي نفس السياق يهاجم أثنار قادة الحزب الاشتراكي الحاكم الذين تبنوا المشروع، ويطالبهم بالإيمان بالغرب كخيار وحيد، بدل الحديث عن تحالف لن يتحقق أبداً. وهذا ما يرد عليه وزير

---

(٧) عنوان المحاضرة هو «النظريات السبع للإرهاب»، وهي الأولى ضمن سلسلة محاضرات ألقاها في جامعة جورج تاون، كأستاذ زائر.

(٨) يشغل حالياً مقعداً في البرلمان الإسباني، كما أنه الناطق الرسمي للحزب في السياسة الخارجية.

(٩) Gustavo De Arístegui, *La Yihad en España: La Obsesión por Reconquistar Al-Andalus* (Madrid: La Esfera de Los Libros, 2005), p. 464.

(١٠) من المحاضرة التي ألقاها أثنار في معهد هودسون الأمريكي في واشنطن، ٢٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦، انظر: «Aznar se pregunta por qué los musulmanes no se disculpan «por haber ocupado España ocho siglos»,» 23/9/2006, <http://www.elmundo.es/elmundo/2006/09/22/espana/1158948138.html>.

بخلاف هذا الرأي، صفق رئيس الحكومة الإسبانية الحالي، للإصلاحات التي تعرفها بعض البلدان العربية التي تسير نحو الدمقرطة، وكذا للإصلاحات التي تهم قضية المرأة والتي تكمن أهميتها، بحسبه، في كونها منبثقة من واقع مجتمعاتها، وليست مستوردة من الخارج. من الكلمة التي ألقاها رئيس الحكومة الإسبانية في القمة التي عقدتها جامعة الدول العربية في الجزائر.

خارجية إسبانيا الاشتراكي «ميغيل أنخيل موراتينوس»، عندما يوضح أن أي تحالف غرب ـ غرب يقصي بقية الحضارات، ويخدم مصلحة الإرهابيين بدرجة أولى، لأن غايتهم هي حدوث مواجهة شاملة بين الإسلام والغرب، ولأن أكثر ما يخيفهم هو حدوث تحالف بين المسلمين والمسيحيين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى، لأن هذا التحالف يشكل خطراً عليهم(١١).

ويعطي «أثنار» لمفهوم الغرب بعداً خاصاً عندما يدمج فيه إسرائيل حيث يعبر عن تعاطفه المطلق معها، وحيث يقول: «إن إسرائيل جزء لا يتجزأ من الغرب، يجب حمايتها على غرار بقية البلدان الغربية»، ويضيف «لأن مصلحتي وديموقراطيتي وحريتي ورفاهيتي ترتبط بشكل كبير بوجود إسرائيل»(١٢)، التي طالب بانضمامها للحلف الأطلسي، حتّى يتمكن الحلف من الدفاع عنها عندما يلزم الأمر ذلك. وهنا يضيف أن التحالف الوحيد الذي يؤمن به، هو ذاك الذي يمثله الحلف الأطلسي(١٣). وبخلاف موجة الرفض التي قوبل بها تصريح أثنار هذا من مختلف التنظيمات السياسية في إسبانيا، وعلى رأسها الحزب الاشتراكي الحاكم(١٤)، وحزب اليسار الموحّد، تبناه قادة الحزب الشعبي، وعلى رأسهم رئيسه الحالي «ماريانو راخوي»، وكاتبه العام «أنخل أثيبيس»، والناطق باسمه في البرلمان «أدواردو ثابلانا»، جملة وتفصيلاً(١٥).

ثانياً: تحالف الحضارات والمرجعيّة الأندلسية

١ ـ من أطروحة كاسترو إلى أطروحة البورنوث

من خلال رصدنا لموقف قطبي التناوب السياسي في إسبانيا من قضية تحالف الحضارات وصراعها، يتبين لنا أنها تعكس، إلى حدّ ما، موقف المجتمع الإسباني والذي له خصوصية لا نجدها في أي مجتمع غربي آخر، وهو انقسام هذا المجتمع في موقفه من المسلمين، بحسب رأي المستعرب الإسباني المعروف «بيدرو مارتينث مونتابث»، إلى قسمين: من يحبهم من دون حدود (Maurófilos)، ومن يكرههم ويحقد عليهم من دون حدود (Maurófobos)، بمعنى لا توجد حدود وسطى(١٦). وبطبيعة الحال، هذا الموقف ساهم فيه بشكل فعال الماضي الأندلسي، والقرون الثمانية التي قضاها العرب في شبه الجزيرة الإيبيرية. من هنا تعتبر أطروحتا قطبي التناوب في إسبانيا بخصوص موضوع تحالف الحضارات، انعكاساً لما يخالج المجتمع الإسباني، وفي الوقت نفسه تعبيراً عما تضمنته أشهر أطروحتين عرفتهما الأوساط الأكاديمية الإسبانية عن الميراث الحضاري الأندلسي في خمسينيّات القرن العشرين، وهما أطروحة

---

(١١) *La Vanguardia*, 7/7/2005.

(١٢) من الحوار الذي أجرته معه محطة BBC البريطانية، ٢٤ تموز/يوليو ٢٠٠٦.

(١٣) من الحوار الذي أجرته معه المحطة الإذاعية الإسبانية SER 17، تموز/يوليو ٢٠٠٦.

(١٤) وصف رئيس الحكومة الإسبانية السابق، فيليبي كونزاليس هذه التصريحات بـ «المهزلة».

(١٥) ينتمي كلّ هؤلاء إلى التيار المتشدد الذي يسيطر في الوقت الحاضر على قيادة الحزب، بعد أن نجح في تهميش التيار المعتدل الذي يمثله سياسيون من بينهم «مانويل بيمينتيل» وزير الشغل السابق الذي جمد نشاطه في الحزب، و«ألبيرتو رويث غاياردون» عمدة مدريد الحالي.

(١٦) من الحوار الذي أجريته مع بيدرو مارتينث مونتابث في مدريد، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠١.

«كلاوديو سانشيث ألبورنوث» التي تضمنها كتابه «إسبانيا لغز تاريخي»، وأطروحة «أميريكو كاسترو» التي تضمنها كتابه «إسبانيا في تاريخها: مسيحيون ومسلمون ويهود»[١٧].

يذهب «كاسترو» (١٨٨٥ ـ ١٩٧٢) إلى أن دور الإسلام واليهودية كان أساسياً في تكوين الهوية الثقافية الإسبانية، وأن إسبانيا المسيحية استفادت من جو التسامح الذي عرفته الأندلس[١٨]. ونظن أن «كاسترو» لم يخالف المنطق، ولا ما تضمنته الوثائق التاريخية التي اعتبرت مصدراً أساسياً في كتابه. ويكفي للتدليل على صدق ما ذهب إليه، الإشارة إلى أن الشخصية الإسبانية التي يتحدث عن تكوينها، استفادت من جو التسامح الذي عرفته الأندلس خصوصاً خلال مرحلة الإمارة والخلافة الأموية، وهو ما سمح بتلاقح ثقافي هام في الجانب الاجتماعي والاقتصادي والفني والعلمي واللغوي. ففي المجال الاجتماعي تمخض عن ذلك التلاقح مثلاً ظاهرة الزواج المختلط، التي اهتمت بها العامة والنخب على حدّ سواء، بحيث إن عدداً من الأمراء والخلفاء كانوا من أمهات مسيحيات؛ وفي المجال الاقتصادي تمخض عنه أخذ الممالك المسيحية بوسائل الإنتاج الصناعي والتجاري والفلاحي المعمول بها في الأندلس؛ وفي المجال العمراني تمخض عنه ذلك التأثير الكبير للهندسة المعمارية الأندلسية والتي أثمرت فناً جديداً هو الفن المدجن الذي طبع المدن المسيحية في إسبانيا، قبل أن يمتد في وقت لاحق إلى المدن التي شيدوها في أمريكا اللاتينية؛ وفي المجال العلمي، تمخض عنه استفادة الممالك المسيحية من علوم نمت وتطورت في الأندلس مثل الطب والصيدلة وعلم الفلك؛ أما في المجال اللغوي فتمخض عنه دخول ما يزيد على ٥٠٠٠ كلمة عربية إلى الإسبانية، بحيث أثرت هذه الكلمات في كلّ جوانب الحياة بما فيها الجانب الروحي، وهكذا ما زلنا نجد إلى اليوم في اللغة الإسبانية مصطلحات ذات مدلول ديني إسلامي، مثل مصطلح Ojalá والمشتق من عبارة «إن شاء الله»، وهو ما يؤكّد أن التعايش استرعى اهتمام الجانب الديني كذلك. وكان وعي المثقفين المسيحيين بجدوى اللغة العربية وراء اقتناعهم، بأن أي إبداع في مجال العلوم والأدب يجب أن يتم من خلالها، وهذا ما نستشفه مما ورد عند أحد المتعصبين للاتينية في القرن التاسع الميلادي وهو الراهب ألبارو القرطبي الذي كتب: «... جميع الشباب المسيحيين الموهوبين لا يعرفون سوى اللغة العربية وآدابها، إنّهم يقرأون ويدرسون الكتب العربية بنشاط منقطع النظير، ويشكلون منها وبأثمان باهظة، مكتبات هائلة، ويُخبرون بهذه الآداب في كلّ مكان، إنّه شيء مدهش... يا للألم! لقد نسي المسيحيون كلّ شيء، حتّى لغتهم الدينية. إنك لا تكاد تجد بينهم إلا بصعوبة، واحداً في الألف يمكنه كتابة رسالة إلى صديق باللغة اللاتينية، أما اللغة العربية، فإنك تجد بينهم من يعبر بها بمهارة كبيرة، بل وينظمون بها أشعاراً تتفوق من الناحية الفنية على الأشعار التي ينظمها العرب أنفسهم». كما نستشف من حرص ألفونسو العاشر الحكيم في القرن الثالث عشر الميلادي على إنشاء مدرسة في طليطلة خاصة بترجمة الأعمال الفكرية العربية إلى

---

(١٧) انظر في هذا الموضوع دراسة: محمد العربي المساري، «الفترة الإسبانية من تاريخ إسبانيا بين قراءتي كلّ من كاسترو وألبورنوث،» في: **كراسات أندلسية: العدد ١**، تقديم عباس الجراري (الرباط: مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، ٢٠٠٥)، ص ٤٣ ـ ٦٧.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٥٧.

اللاتينية، وهو ما كان له دور بارز في انبعاث أوروبا خلال عصر النهضة، وبالتالي جعل شبه الجزيرة الإيبيرية أرضاً خصبة لحوار الثقافات. وعن ذلك يقول خوسي لويس ثباتيرو: «كانت إسبانيا دائماً منطقة التقاء للثقافات والتقاليد والديانات المختلفة، وبسبب ذلك لنا نحن الأسبان هوية متنوعة ومتعددة الجذور. إننا نسعى، كما فعلنا على عهد مدرسة طليطلة المشهورة، وكما فعلنا على امتداد تاريخنا، إلى المساهمة في نشر وتعميم ثقافة الحوار»(١٩).

إن التلاقح هو أخذ وعطاء، والحضارة الأندلسية ما كان لها أن تصل إلى ما وصلته، لولا تشبعها بعناصر وليدة البيئة التي نمت فيها، عناصر تنتمي إلى الحضارة الرومانية والقوطية. وقد لاحظ ابن خلدون في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، أن العمر الطويل الذي ميّز الحضارة الأندلسية، بخلاف الحضارات المغاربية التي كانت تنهار بانهيار الدول التي تقيمها، راجع لاستنادها إلى أسس متينة تمثلها الحضارة القوطية أولاً ثمّ الأموية في ما بعد. ويقول: «رسخت عوائد الحضارة واستحكمت بالأندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط، ثمّ ما أعقبها من ملك بني أمية... وكلتا الدولتين عظيمة، فاتّصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت»(٢٠).

من هنا يمكن القول إن كونية الحضارة الأندلسية، تستمد بريقها من تنوع مصادرها الدينية والثقافية، ومن إيمانها بشرعية الاختلاف، وهذا ما يجعل فئة مهمة من المجتمع الإسباني تعتبرها اليوم جزءاً من ميراثها الثقافي، على غرار الحضارتين الرومانية والقوطية، وفي نفس الوقت تعتبرها إلى حدّ بعيد، صالحة لتعتمد كنموذج للحوار بين الأديان والحضارات. وكم أثارت تصفيق الحاضرين أبيات من القرن الثاني عشر الميلادي للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، وهي تلقى من طرف باحث إسباني في ندوة علمية حول التسامح نظمت مؤخراً في إسبانيا(٢١).

وبخلاف أطروحة كاسترو التي يستند إليها المدافعون عن مشروع تحالف الحضارات، ترى أطروحة «كلاوديو سانشيث ألبورنوث» (١٨٩٣ ـ ١٩٨٤) أن إسبانيا رفضت دائماً الإسلام، وأنها غير مدينة بشيء للحضارة العربية الإسلامية، وهذا ما نقرأه كذلك في محاضرة أثنار سالفة الذكر حيث يقول: «لقد رفضت إسبانيا أن تكون جزءاً من العالم الإسلامي، عندما تمّ غزوها من طرف المسلمين، وهي بذلك تفادت فقدان هويتها»(٢٢). وقد تجاوز أثنار ما ذهب إليه «ألبورنوث» نفسه الذي يرفض التأثير الإسلامي في تكوين الشخصية الإسبانية، ويقر

---

(١٩) من الكلمة التي ألقاها رئيس الحكومة الإسبانية في القمة التي عقدتها جامعة الدول العربية في الجزائر.

(٢٠) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٢٩١.

(٢١) قام بترجمة هذه الأبيات إلى الإسبانية وإلقائها، المستعرب بابلو بنيتو في أيام الثقافة الإسلامية التي نظمت في قرية المنستير في شهر تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥، وتقول:

لقد صار قلبي قابلاً لِكُلّ صورة ... فمرعىً لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني

(٢٢) «Aznar se pregunta por qué los musulmanes no se disculpan «por haber ocupado España ocho siglos».

بوجود حروب طويلة وصراعات دائمة، لكنه في الوقت ذاته يقرّ بوجود إسلام إسباني له خصوصياته المختلفة عن الإسلام المشرقي والمغاربي[٢٣]، وهو ما يعني ضمنياً أنه استمد هذه الخصوصية من الأرض التي نما وترعرع فيها، وهذا ما يرفضه أثنار الذي يعتبر المسلمين دخلاء أولى بهم أن «يقدموا الاعتذار لإسبانيا بسبب احتلالهم لها لمدّة ثمانية قرون»[٢٤]، بدل مطالبة البابا بينديكتس السادس عشر بالاعتذار عن تصريحه الذي يعكس حقيقة تاريخية، بحسب رأيه، وهي استعمال الإسلام للعنف من أجل التوسع[٢٥]. وقد ثمن أثنار تصريح البابا الذي اعتبره «صائباً وذكياً»، وانتقد البلدان الإسلامية، على موقفها الرافض لتلك التصريحات، وبشكل خاص المغرب على استدعائه لسفيره في الفاتيكان للتشاور. كما انتقد الحكومات الأوروبية وكذا المثقفين والمبدعين الأوروبيين، على صمتهم، وعدم مواجهتهم لتلك الاحتجاجات باحتجاجات مماثلة[٢٦]. ولم يتفوق على أثنار في هذه النقطة إلا نائب رئيس الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا المونسينيور «أنطونيو كانيثاريس» الذي وصف الحكومات الغربية وغيرها من فعاليات المجتمع المدني بـ «الجبانة»، لعدم ردها بالمثل على احتجاجات البلدان الإسلامية الرافضة لتصريحات البابا.

إن بعض قادة الحزب الشعبي الإسباني الحاليين يتبنون جملة وتفصيلاً أطروحة

---

(٢٣) المساري، «الفترة الإسبانية من تاريخ إسبانيا بين قراءتي كلّ من كاسترو وألبورنوث».

(٢٤) «Aznar se pregunta por qué los musulmanes no se disculpan «por haber ocupado España ocho siglos».

أثار ما ذهب إليه أثنار من دعوة للمسلمين لتقديم الاعتذار لإسبانيا، على غزوها واحتلالها لمدّة ثمانية قرون، امتعاض عدد من المثقفين الإسبان المهتمين بالتراث الحضاري الأندلسي، وقد علق كارلوس تينا، على هذه الدعوة بما يلي: «هل سيعتذر العرب عما تركوه في إسبانيا من مآثر تاريخية، وموسيقى وطبخ، ومجمل مظاهر الحضارة التي يستفيد منها الإسبان اليوم؟»، وكتب ألبيرتو فيسانس: «لو كان أثنار على علم بتطور الحضارة الأوروبية، لشكر العرب على غزوهم إسبانيا؛ ففي إسبانيا ازدهرت العلوم حتّى اليونانية منها التي ترجمها الأوروبيون لتكون دعامة حضارتهم». نقلاً عن: الحسين المجذوبي في: **الأيام** (المغرب) (٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦). وكتب أيان جيبسون: «أظن أن الأولى هو أن تقدّم إسبانيا اليوم، اعتذارها للمتحدرين من أصول موريسكية، على ما سببه ذلك الطرد العنيف من آلام لأسلافهم»، انظر: *El Periódico* (1 octubre 2006).

(٢٥) أثارت المحاضرة التي ألقاها البابا بينديكتس السادس عشر في جامعة بون الألمانية في شهر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦، ضجة كبرى، وعبرت جلّ البلدان الإسلامية عن شجبها لما تضمنته من مس بالإسلام، وبالرسول (ﷺ)، حيث أورد البابا في محاضرته، حواراً دار في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي بين إمبراطور بيزنطي وعالم فارسي مسلم، قال فيه الإمبراطور للعالم إن الرسول لم يأت إلا بما هو غير إنساني وشرير مثل نشر الدين بحدّ السيف. وقد اضطر البابا للتراجع عن كلامه في أكثر من مناسبة، وذلك بهدف جبر الخواطر وتلطيف الأجواء.

(٢٦) من حوار أجراه التلفزيون البرتغالي مع أثنار، ٢٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦. النقد نفسه وجهه أثنار للحكومات الأوروبية التي عبرت عن رفضها لنشر صحيفة دانمركية للرسوم المسيئة للرسول سنة ٢٠٠٥، وقال في هذا السياق: «لو اعتذرنا لهم على مجرد رسوم، فلن يأخذوننا مأخذ الجد عندما نتحدث معهم في شأن السلاح النووي»، وهنا عبّر أثنار عن رفضه القاطع أن يمتلك أي بلد إسلامي سلاحاً نووياً، بينما تحمس لامتلاك إسرائيل لهذا السلاح. انظر: <http://www.20minutos.es/noticia/88818/0/aznar/bush/vinetas>.

هانتنغتون التي تقول إن الصراع بين الإسلام والغرب هو صراع حتمي لا يمكنه أن يزول، لاستناده إلى نقطتين ليس هناك أي إمكانية لزوالهما، **الأولى** هي قناعة كلّ ديانة بأنها هي الصائبة وتمثل الخير، والأخرى هي الخاطئة وتمثل الشر[٢٧]، و**الثانية** هي أن كلّ ديانة ترى أن استمراريتها لن تتحقق دون السيطرة على الأخرى[٢٨]، وهذا ما يلخصه أثنار على النحو التالي: «إننا في حالة حرب معهم، فإما نحن وإما هم»[٢٩].

إن دور الإسلام واليهودية كان أساسياً في تكوين الهوية الثقافية الإسبانية، وإن إسبانيا المسيحية استفادت من جو التسامح الذي عرفته الأندلس.

لقد تناسى قادة الحزب الشعبي كيف أن المصالح السياسية تجاوزت في العديد من الحالات المصالح الدينية في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد القرن الثامن الميلادي الذي يجعله أثنار «بداية للإرهاب الإسلامي»، ولن أسوق أمثلة من عهد الإمارة والخلافة الأموية، والذي لا يحتاج فيهما التعايش بين الإسلام والغرب المسيحي إلى أدلة إضافية، أكثر مما سلف ذكره، بل أسوق أمثلة من مرحلة ما بعد سقوط الخلافة، وكيف أن المصالح السياسية دفعت العديد من ملوك الطوائف للتحالف مع المسيحيين ضدّ أبناء ملّتهم من المسلمين، أو خلال عهد الموحّدين، والذين تحالفوا أكثر من مرة مع مملكة ليون ضدّ مملكتي قشتالة والبرتغال.

إن الخطاب الذي يتبناه بعض قادة الحزب الشعبي من أمثال أثنار وأريستيغي، بخصوص علاقة الإسلام بالغرب هو خطاب صليبي، يعتبر أحسن وسيلة للوقوف في وجه المتطرفين الذين يدعون إلى الجهاد ضدّ النصارى، هي مواجهتهم بسلاحهم، أي بالمرجعيّة الدينية. وهذا ما يعبر عنه أثنار على النحو التالي: «هم يطالبون بالخلافة، وإذا حدث وطالبت أنت بالحروب الصليبية، يتهمونك بالحمق»[٣٠]. وبسبب هذا الطرح، لم تتردد صحيفة **البايس** *(El*

---

(٢٧) هذا الطرح يرفضه مستشار رئيس الحكومة الإسبانية في مجال تحالف الحضارات الذي لا ينفي وجود بعض الصواب في أطروحة هانتنغتون: «إلا أن ما هو غير مؤكّد (حسبه) هو أن نكون محكومين بصراع حتمي».

(٢٨) Samuel Huntington, *Choque de civilizaciones: Y la reconfiguración del orden mundial*, sucros ([Madrid]: Ediciones Paidós, [2004]), p. 252.

(٢٩) «Aznar se pregunta por qué los musulmanes no se disculpan «por haber ocupado España ocho siglos».

صنف عدد من قادة الحزب الاشتراكي، واليسار الموحّد، هذه التصريحات بالشاذة التي تدخل ضمن منطق الحرب. انظر: **الأيام** (٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦).

(٣٠) من حوار أجراه التلفزيون البرتغالي مع أثنار، ٢٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦. بسبب موقفه المعادي للإسلام، نشر أحد مواقع شبكة الإنترنت والمتخصص في تركيب صور الساسة الذين يصنعون الحدث، صورتين مركبتين لأثنار، الأولى مرتدياً ملابس البابا، وبيده صولجان البابوية، وعليها تعليق يقول: «أول بابا في تاريخ الفاتيكان يطلق شاربه» (كناية بشارب أثنار)، والثانية للشخص نفسه، وهو يتقمص دور القديس «سانتياغو قاتل المسلمين»، في إحدى معاركه ضدّ هؤلاء في الأندلس.

Pais) في إحدى افتتاحياتها، بتشبيه أثنار بـ «ابن لادن» على اعتبار أن كليهما يوظف الدين «كلّ على شاكلته» لتكريس أسطورة صراع الحضارات. وقد وصف صاحب الافتتاحية محاضرة أثنار سالفة الذكر في جامعة جورج تاون، بـ «المسرحية المرعبة»(٣١).

إن الخطاب الديني الصليبي الذي تبناه الملكان الكاثوليكيان في نهاية القرن الخامس عشر، والذي نجده لغاية القرن التاسع عشر لدى بعض رجال الكنيسة من أمثال مانويل كاستيانوس الذي كتب «إن إسبانيا هي المدعوة لنقل نور المسيحية إلى المسلمين المتعصبين الأفظاظ وتنفيذ وصية إيزابيل الكاثوليكية»(٣٢)، إن نفس هذا الخطاب يتبناه اليوم بعض قادة "الحزب الشعبي، وعلى رأسهم أثنار الذي يقول إنّه يؤيد كلّ ما قام به الملكان الكاثوليكيان ضدّ المسلمين(٣٣). ونعرف أنهما كانا وراء إنهاء الحكم الإسلامي في الأندلس، وخصوصاً وراء سنّ سياسة محاكم التفتيش التي أجبرت المسلمين على مغادرة ديارهم، أو اعتناق المسيحية. وكانت مصادرة الأملاك، والحكم بالإعدام من خلال إحراقهم وهم أحياء، مآل كلّ من تخلف منهم في إسبانيا وافتضح سرّ ممارسته لديانته في الخفاء. وقد ساند عدد من السياسيين والمثقفين اليمينيين، أثنار في تعلقه بالسياسة التي مارسها حيال المسلمين، الملكان الكاثوليكيان. وكتبت صحيفة **أ. ب. س.** *(ABC)*، أنه لولاهما، «لكانت بناتنا يرتدين الحجاب في الشوارع» إلى اليوم. وأضاف كاتب المقال «لست من أنصار أثنار لكن أقول، في هذه اللحظة كلنا أثنار»(٣٤).

٢ ـ أطروحة فيدال وفنخول: من التاريخ إلى الأيديولوجيا

منذ تفجيرات ١١ أيلول/سبتمبر، بدأ يظهر داخل الجامعة الإسبانية، وإن بشكل محدود، تيار من المؤرخين والمستعربين يتبنون أطروحة اليمين المتطرف من التراث الحضاري الأندلسي. ورغم أن التيار المذكور يخضع هذا الميراث للأيديولوجيا من أجل خدمة أهداف سياسية معينة بعيدة في أغلب الحالات عن المصداقية العلمية وعن الحقيقة التاريخية، فإن أعماله تلقى رواجاً كبيراً، بسبب طابعها السجالي، وبسبب مخالفتها للمألوف، وخصوصاً بسبب الاهتمام الخاص الذي أصبح يبديه الرأي العام الإسباني لكُلّ ما له علاقة بالإسلام منذ التفجيرات الإرهابية التي عرفتها مدريد في آذار/مارس ٢٠٠٤، والتي كانت لها انعكاسات عميقة على الحياة السياسية والاجتماعية في إسبانيا.

ومن أبرز ممثلي هذا التيار سيزار فيدال صاحب كتاب **إسبانيا في مواجهة الإسلام: من**

---

(٣١) «Editorial,» *El País*, 23/9/2006.

(٣٢) Cánovas Del Castillo, *Historia de Marruecos* (Madrid: Ministerio de Asuntos Exteriores, 1884), p. 103.

(٣٣) «Aznar se pregunta por qué los musulmanes no se disculpan «por haber ocupado España ocho siglos».

(٣٤) انظر: Alfonso Rojo, dans: *ABC*, 28/9/2006, et **الأيام** (٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦).

محمد إلى ابن لادن(٣٥)، الذي وبسبب طابعه السجالي، طبع عشر مرات في أقل من سنتين، وسيرافين فنخول صاحب كتاب **وهم الأندلس**، وكتاب **الأندلس ضدّ إسبانيا** الذي طبع أربع مرات في سنتين(٣٦). وأمام حرصهما على تسخير التاريخ الأندلسي لفهم العلاقة المعقدة بين الإسلام والغرب اليوم، لا يتردد الباحثان في إخفاء بعض المظاهر التي تؤكد عظمة الحضارة الأندلسية، وعلى رأسها التعايش بين الإثنيات والملل التي شكلت المجتمع الأندلسي، وفي نفس الوقت في جعل الصراع السمة الوحيدة التي تحكّمت في العلاقة بين الديانتين السماويتين في الأندلس. ويذهب «فيدال» إلى حدّ رفض أي تأثير إيجابي للحضارة الأندلسية في إسبانيا، بما فيها ما هو واضح وبيِّن مثل فن العمارة، وتقنيات الري في الفلاحة، لأن ذلك لم يكن، بحسب رأيه، عربياً بل قوطياً أو رومانياً. والعرب كانوا وراء انهيار الحضارة المتطورة التي عرفتها شبه الجزيرة الإيبيرية قبل وصولهم(٣٧). وإذا كان هذا النوع من الخطاب الذي يرمي إلى تزييف التاريخ، غير مقبول من طرف العارف بالتاريخ الأندلسي، فإن رجل الشارع العادي الذي يقبل على كتب فيدال، المفتقدة للصرامة العلمية، يصدقها ويسلم بها، وبالتالي يساهم في وضعية الرفض للإسلام، وهذا ما تؤججه تيارات داخل الكنيسة الكاثوليكية(٣٨)، وكذا بعض وسائل الإعلام اليمينية، مثل صحف **ألموندو**، و**أ. ب. س.**، و**لارازون**، و**ليبيرتاد ديجيتال** وخصوصاً إذاعة كوبي (Cope) التي وجد فيها فيدال منبراً لأطروحته الداعية إلى صراع الحضارات، ومعاداة الإسلام، حيث يقدم فيها برنامجاً سياسياً يثير الكثير من الجدل. وللتذكير، فهذه الإذاعة تمولها وتشرف عليها الكنيسة الكاثوليكية.

إن الأصوات المعادية للإسلام، والتي تتبنى أطروحة صراع الحضارات، تحرّكها بحسب

---

(٣٥) Cesar Vidal, *España Frente al Islam: De Mahoma a Ben Laden* (Madrid: La Esfera de los libros, 2005).

(٣٦) يسعى فنخول (Fanjul) الذي يشغل منصب أستاذ كرسي في قسم الدراسات العربية والإسلامية في جامعة مدريد «أوتونما»، لتكوين جيل من الباحثين الشباب يتبنون أفكاره نفسها، غير أن حضور هذا التوجه لا يزال محدوداً داخل الجامعة المذكورة، بفضل الحضور المكثف للتيار الرافض لهذه الأفكار، والذي يقوده عميد المستعربين الإسبان ومؤسس قسم الدراسات العربية والإسلامية في الجامعة المذكورة، «بيدرو مارتينيث مونتافث»، بجانب باحثين بارزين متخصصين في الإسلام السياسي من بينهم «خيما مارتين مونيوث»، و«كارمين رويث برافو»، و«برنابي لوبيث غارثيا». انظر: Serafin Fanjul: *La Quimera de al-Andalus*, historia (Madrid: Siglo XXI, 2004), et *Al-Andalus Contra España: La Forja del Mito*, historia, 4th ed. (Madrid: Siglo XXI, 2003).

(٣٧) «César Vidal analiza en su último libro las relaciones entre España y el Islam,» *Libertad digital*, 26/2/2004.

(٣٨) لأخذ فكرة عن ذلك، يمكن العودة إلى البيان الصادر عن: المؤتمر الخامس عشر لـ «الوحدة الكاثوليكية»، سرقسطة، ١٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٤، والذي يصف الإسلام بـ «الدين الباطل»، ويقارن بين الإرهابيين والمهاجرين المسلمين في إسبانيا، ويطالب بـ: «إيقاف الزحف المغربي، ومنع هجرة المغاربة والمسلمين بشكل عام إلى إسبانيا»، وفي الوقت نفسه يدعو إلى المتابعة القانونية لِكُلّ مؤسسة تستعمل المال العام للتعريف بالحضارة الإسلامية، مثل جامعة قادس وحكومة الأندلس المحلية. انظر: «El Reto del Islam en la España actual,» < http://www.carlismo.es/modules.php?name = News&file = article&sid = 86 > .

رأي وزير خارجية إسبانيا «ميغيل أنخل موراتينوس» مصالح سياسية معينة، وهي تستند في الأساس إلى نوع من الوطنية الضيقة، أما خطورتها فتكمن، بحسب رأيه، في كونها: «تصل إلى الشباب من خلال المدارس والجامعات، وإلى الجمهور الواسع من خلال وسائل الإعلام من صحف وإذاعة وتلفزيون»(٣٩). ويضيف: «ليس هناك أدنى شكّ أنه يوجد في الغرب أشخاص يريدون تشييد حاجز يرمي إلى إيجاد نوع من عدم فهم الغرب للعالم العربي الإسلامي، حاجز يرفض قيم هذا العالم، ويروج بأنها متشددة وتهدد نمط عيشه»(٤٠).

بالنسبة لفنخول فهو ينطلق كذلك من الماضي الأندلسي لتفسير بعض الظواهر الراهنة في علاقة الإسلام بالغرب، وهكذا يرفض التسليم بأن الأندلس عرفت تسامحاً دينياً، ويقول إن الذي ساد فيها هو الصراع الديني والتعصب، وإن المسلمين لم يكونوا أبداً متسامحين في الأندلس، وإن إسبانيا تشكلت ككيان موحّد بفضل عدم قبولها بالإسلام(٤١)، ويضيف إن المسلمين كما رفضوا الآخر وديانته والتعايش معه في الماضي، فهم يرفضون ذلك اليوم، ويستدل هنا ببعض مظاهر التعصب الديني التي كان لبنان، وتركيا، ويوغوسلافيا مسرحاً لها في السنوات الأخيرة، وإنهم نهجوا في الأندلس سياسة عنصرية مثل التي عرفتها جنوب أفريقيا منذ سنوات قليلة. وهذا ما يجعل أطروحته بعيدة جداً عن المصداقية والصرامة العلمية، لاعتمادها أولاً على معطيات من القرون الوسطى من أجل تفسير ظواهر تقع في القرن الواحد والعشرين، ولخلطها بين الإسلام كسلطة سياسية، حتمت عليها طبيعة العلاقة بين مختلف الممالك الموجودة في شبه الجزيرة الإيبيرية، الدخول في مواجهات سياسية مع ممالك الشمال المسيحية خلال بعض فترات التاريخ الأندلسي(٤٢)، وبين الإسلام كعقيدة، يحترم أهل الذمة ويسهر على توفير الحماية اللازمة لهم، وعلى تسهيل اندماجهم في الثقافة العربية الإسلامية، وإن حافظوا على ديانتهم الأصلية. وهنا ينحو فنخول منحى هانتنغتون الذي يقصي المعطى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والفني في العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس، ويحصر هذه العلاقة في المواجهات العسكرية، وفي حالة القتال المستمر التي حددتها ثنائية مزمنة هي «غالب ومغلوب»، إذ كانت الغلبة للمسلمين بحسب رأيه منذ وصولهم إلى الأندلس سنة ٧١١ إلى سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥، ثمّ أصبحت الغلبة للمسيحيين منذ هذا

---

(٣٩) في زيارة قمت بها لقصر الحمراء بغرناطة بعد أيام قليلة من تفجيرات مدريد الإرهابية، لفتت انتباهي الأعداد الكبيرة من تلامذة المدارس الذين يزورون هذا القصر الأسطوري أفواجاً، فاقتربت من بعضهم وسألته عن الزيارة، فرد أحد الأطفال بعفوية: «كانت زيارة مملة» ، ولما أردت أن أعرف السبب، قال طفل آخر: «لأننا لم نجد هناك مسلمين كما كنا نتوقع»، ولما قلت له إن في إسبانيا أكثر من نصف مليون مسلم، أجاب: «أنا أقصد مسلمين يمتطون الخيول، ولهم عمامات وسيوف، وليس المسلمين الذين يضعون القنابل في القطارات كما نشاهد في التلفزيون».

(٤٠) من الكلمة التي ألقاها وزير خارجية إسبانيا في قمة جامعة الدول العربية المنعقدة في تونس، أيار/ مايو ٢٠٠٤.

(٤١) Serafin Fanjul, «El Paraiso que nunca existió,» *Libertad digital*, 7/9/2006.

(٤٢) يرى ميغيل أنخيل موراتينوس، أن استعمال قوة السلاح في فترات محددة، لم يقتصر على الإسلام والمسيحية، بل لا توجد ديانة لم تضطر لاستعماله في لحظة ما لتبرير وجودها. انظر: المصدر نفسه.

التاريخ إلى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢[٤٣]. كما ينحو منحى أثنار وأريستيغي، في تحذيره من الخطر الذي يشكله الإسلام على إسبانيا اليوم[٤٤]، وفي استهجانه مشروع تحالف الحضارات الذي يقول عنه: «أنّه لا يعبر عن شيء تقريباً»[٤٥].

ويواصل فنخول استعمال التاريخ الأندلسي بشكل مغلوط لتكريس أطروحة صراع الحضارات[٤٦]، عندما يعتبر أن معاناة الموريسكيين في إسبانيا بعد سقوط غرناطة، تستجيب لمنطق المعاملة بالمثل، وأن المسيحيين عانوا المعاملة نفسها من قبل. بل ويحمل الموريسكيين مسؤولية الإقصاء والتهميش الذي كانوا عرضة له، لأنهم رفضوا وعلى شاكلة الغجر الاندماج[٤٧]. وبحكم أنهم رفضوا الاندماج، فإنه يعتبر عملية الطرد الجماعي التي طالتهم، أمراً معقولاً. أما الغاية من تسخير هذا المعطى من طرف فنخول فلم يكن بريئاً كذلك، لأنه هدف من ورائه مهاجمة المهاجرين المغاربيين الذين يعيشون حالياً في إسبانيا والذين يرفضون بحسب رأيه الاندماج، وهو إذ يطالبهم وبقية المهاجرين بذلك، يضع شروطاً تتنافى وكل التشريعات الأوروبية. يقول: «إننا في إسبانيا الكريمة التي فتحت اليوم أبوابها لِكُلّ الإثنيات والثقافات والديانات، نحتاج إلى الإدلاء بأصواتنا، هل نقبل بِكُلّ الأقليات التي تعيش بيننا كأسبان، لهم كامل الحقوق وعليهم كلّ الواجبات، سواء أكانوا من الغجر أم من المهاجرين من مختلف الأصول»[٤٨]؟ ويتلاقى فنخول في طرحه العنصري هذا، مع أثنار الذي يعتبر المهاجرين المسلمين خطراً على إسبانيا[٤٩] لأن الأمر يتعلق

إن الأصوات المعادية للإسلام، التي تتبنّى أطروحة صراع الحضارات تحركها مصالح سياسية معينة. وهي تستند في الأساس إلى نوع من الوطنية الضيقة.

---

(٤٣) Huntington, *El Choque de civilizaciones*, p. 252.

(٤٤) يرفض فنخول وجود إسلام معتدل، ويقول إن هذه الديانة هي شيء مرادف للعنف وللتطرف، من هنا يعتبر أن الخطر الحقيقي لا يمثله من ينتمي للتيارات الإسلامية المتطرفة، وإنما الإسلام كعقيدة. انظر: Serafin Fanjul, «Objetivo, el Papa,» *Tribuna digital,* 25/9/2006.

(٤٥) Fanjul, «El Paraiso que nunca existió».

(٤٦) الشيء نفسه يقوم به مع تاريخ الإسلام بشكل عام، فيدعي أن التراث العربي الإسلامي، المكتوب والشفوي منذ ظهور الإسلام وإلى اليوم، لم يطرأ عليه أي تغيير بخصوص الموقف من المسيحية، والذي اتسم في الماضي كما في الحاضر، بالعداء لهذه الديانة وبالحقد عليها.

(٤٧) خصص فنخول فصلاً كاملاً من كتابه **وهم الأندلس**، إلى وضع مقارنات بين الموريسكيين والغجر، وسوء اندماج المجموعتين في المجتمع الإسباني. انظر: فصل «الغجر والموريسكيون،» في: Fanjul, *La Quimera de al-Andalus*, pp. 94-116.

(٤٨) المصدر نفسه.

(٤٩) يتلاقى معه كذلك في تثمين تصريحات البابا بينديكتس السادس عشر المعادية للإسلام، وفي مطالبة المسلمين بالاعتذار لإسبانيا على غزو الأندلس في القرن الثامن الميلادي، ويضيف فنخول بأن المسلمين مطالبون كذلك بالاعتذار عن نشر الإسلام بحدّ السيف في القرن السابع الميلادي، في بيزنطة ومصر. في المقابل يعيب على البابا يوحنا بولس الثاني اعتذاره للمسلمين على الحروب الصليبية. انظر: Fanjul, «Objetivo, el Papa».

ببلد، سكانه الأصليون في طريق الشيخوخة[٥٠]، ويتم تعويضهم بأبناء مهاجرين، يحملون الجنسية الإسبانية بحكم أنهم ولدوا في إسبانيا، رغم أن ثقافتهم ودياناتهم وعقليتهم مختلفة تماماً عن تلك التي يمثلها الإسبان. ولا يخفي أثنار انزعاجه لوجود عدد كبير من المهاجرين غير المسيحيين في أوروبا، ليس لهم أي استعداد، بحسب رأيه، للأخذ بالقيم الأوروبية، تلك القيم المستمدة من الثقافة المسيحية. يقول: «لا يمكنني أن أفهم أوروبا من دون القيم المسيحية[٥١].

إن هذا النوع من الإطروحات يشكل ضربة قوية للتعايش في إسبانيا اليوم، وتكريساً لوضعية التهميش التي يعيشها المهاجرون المسلمون إليها. كما يكرس ما يتضمنه الكتاب المدرسي الإسباني من رفض للإسلام، بحسب الدراسة التي قامت بها الباحثة «ماريا روسا دي ماداريا‌غا» عن صورة المسلم في الكتاب المدرسي الإسباني؛ فالكتب المدرسية وبالطريقة التي تقدّم بها «المسلم» جعلت، في العديد من الأحيان، الإسباني الذي أخذ من هذه الكتب، في طفولته ومراهقته، يطلق أحكاماً قيمية جاهزة يعجز هو نفسه عن فهمها أحياناً، بحيث يكتفي في تبرير موقفه بجمل مبهمة مثل: «لا أعرف السبب لكني لا أحب المسلمين»، أو «ليس لي أي عداء مع المسلمين لكنني في الحقيقة لا أرتاح إليهم»[٥٢]. وبطبيعة الحال يضاف اليوم إلى ما يتضمنه الكتاب المدرسي ما تتضمنه بعض وسائل الإعلام التي لا تميز في الكثير من الأحيان بين الإسلام والإرهاب[٥٣]. وأظن أن إلحاح مشروع تحالف الحضارات الذي أطلقه

---

(٥٠) «Aznar se pregunta por qué los musulmanes no se disculpan «por haber ocupado España ocho siglos».

ربما يساعد على فهم تصريحات أثنار هذه وضعها في سياقها، فقد أصدرت الحكومة التي كان يرأسها، قانوناً للهجرة سنة ٢٠٠٠، وضع عدة عراقيل في وجه دخول واندماج المهاجرين في إسبانيا. وعندما وصل الاشتراكيون إلى الحكم سنة ٢٠٠٣، قاموا بإلغاء عدد من تلك الحواجز، كما قاموا بتسوية وضعية ما يزيد على ٧٠٠ ألف مهاجر، نسبة كبيرة منهم من المسلمين، كانوا يقيمون بطريقة غير قانونية في إسبانيا. وكان ذلك وراء انتقادات حادة وجهها قادة الحزب الشعبي، ومن بينهم أثنار، إلى الحكومة الاشتراكية. وقد ردّ ثباتيرو على بعض تلك الانتقادات بما يلي: «البعض يقبل المهاجرين لرعاية العجزة وللعمل في ورش البناء، لكنه لا يقبلهم كأشخاص لهم حقوقهم». من الكلمة التي ألقاها في تجمع خطابي للحزب الاشتراكي، برشلونة، فاتح تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦.

(٥١) من الحوار الذي أجرته المحطة الإذاعية الإسبانية SER مع أثنار. إن غياب تنظيم سياسي يميني متطرف ذي حضور قوي في إسبانيا، على غرار ما هو عليه الأمر في بلدان أوروبية أخرى، دفع بالحزب الشعبي إلى ملء هذا الفراغ. ويسجل المتوقف عند خطاب هذا الحزب ورئيسه الشرفي أثنار من قضايا مثل التعصب للمسيحية، وإقصاء المهاجرين، تشابهاً كبيراً مع الخطاب الذي تتبناه الجبهة الشعبية، ورئيسها جون ماري لوبان في فرنسا.

(٥٢) للتعمق أكثر في هذه النقطة، يمكن العودة إلى الدراسة المتميزة التي نشرتها الباحثة ماريا روسا دي ماداريا‌غا في عمل جماعي، انظر: María-Rosa de Madariaga [et al.], *Apprendre à se comprendre: Perceptions sociales et culturelles entre l'Espagne et le Maroc* (Madrid: Fondacion Repsol-YPE, 2001).

(٥٣) أخبرني أحد الزملاء المستعربين الذي يدرس تاريخ الإسلام في إحدى الجامعات الإسبانية، أن محطة إذاعية اتّصلت به لإجراء حوار عقب تفجيرات مدريد الإرهابية، ولما اعتذر عن ذلك باعتبار أنه متخصص في الإسلام وليس في الإرهاب، ردّ عليه الصحافي الذي أراد استجوابه، بأنه ليس هناك فرق فكلاهما يعني شيئاً واحداً.

رئيس الحكومة الإسبانية، على مراجعة الكتب المدرسية وما تضمنته من صور سلبية عن الآخر(٥٤)، وكذا السعي لتقوم وسائل الإعلام بتصحيح بعض أحكام القيم التي تبثها عن الآخر يدخل في هذا السياق(٥٥).

ثالثاً: تحالف الحضارات: الخصوصية الإسبانية

على الرغم من الحرب التي يشنها اليمين المتطرف اليوم على الإسلام، ومن رفضه لأي حوار أو تحالف مع المسلمين، فإن إسبانيا تعرف ومنذ عودة الديمقراطية سنة ١٩٧٥ صحوة إسلامية غير مسبوقة، بحيث تمتد من الاعتزاز بالهوية الأندلسية إلى اعتناق الإسلام. وهكذا نجد إسلاماً إسبانياً محضاً لا علاقة له بالعرب، وهو إسلام يختلف عن ذاك الموجود في بقية البلدان الغربية والمرتبط بالأساس بالمهاجرين والمتحدرين منهم. وقد ربط المسلمون الأسبان اليوم دينهم بأرضهم، وبما خلفه أجدادهم المسلمون فيها من معالم حضارية، وعلى رأسها فن العمارة. وهكذا تشهد اليوم بعض المدن والقرى الإسبانية التي توجد فيها مظاهر عمرانية أندلسية، اهتماماً خاصاً بالثقافة الإسلامية. ومن بين الحالات الملفتة للانتباه التي تعتبر نموذجاً في تحالف الحضارات، تلك التي تمثلها قرية المنستير الواقعة في منطقة جبلية معزولة، على بعد ١٢٠ كلم من مدينة إشبيلية التي تأوي أقدم مسجد، في أوروبا، لا تزال تقام فيه الصلاة إلى اليوم، وقد شيد في القرن العاشر على عهد خلافة عبد الرحمن الناصر. وبقي المسجد مهملاً لعدة قرون، إلى أن تمّت إعادة ترميمه سنة ١٩٧٥ بعد وفاة الدكتاتور فرانكو(٥٦). وقد أعطى إشعاعاً خاصاً للقرية التي وجدت فيه هويتها، بحيث دأبت سنوياً منذ عام ١٩٩٠، وبمناسبة مرور ألف سنة على تأسيسه، على تنظيم أيام الثقافة الإسلامية(٥٧).

---

(٥٤) لتوضيح هذه النقطة، يتوقف المستشار الخاص لرئيس الحكومة الإسبانية في مجال تحالف الحضارات، وهو أحد أكثر المتحمسين لإعادة النظر في ما يتضمنه الكتاب المدرسي من أحكام مسبقة، عند الكيفية التي يقدم بها الكتاب المدرسي الإسباني، صورة المسلم وتاريخه، فيقول: «أعتقد أن المشكلة تكمن في الطريقة التي يُقدم بها ذلك التاريخ، وأنا مقتنع بضرورة مراجعة الكتاب المدرسي الإسباني. فمثلاً أعتبر أن حرب الريف وصمة عار في جبين إسبانيا، وهذا ليس رأي الجميع في إسبانيا، لذا أرى أن هذه المسألة من مهام مشروع تحالف الحضارات الذي يتوخى منه تجاوز كلّ هذه الأحكام المسبقة».

(٥٥) استغرب ماكسيمو كخال، الانتقادات التي توجه في الغرب لقناة الجزيرة لأخذها موقفاً لا يرضي الإدارة الأمريكية وبعض البلدان الغربية، في وقت لا يوجه فيه أي نقد لقنوات غربية لا تتورع في إبداء عدائها للإسلام، مثل قناة فوكس للأخبار، انظر: Máximo Cajal, «Asesor del Presidente Zapatero, Compara Fox News Con al Yazira,» *Libertad digital*, 23/6/2005.

(٥٦) على غرار ما يفعل اليمين المتطرف اليوم في إسبانيا، حاولت الأيديولوجيا الفرنكاوية طمس كلّ معالم الحضارة الأندلسية، وكانت كتب التاريخ إما تشوه هذه المرحلة من تاريخ إسبانيا أو تقفز عليها، بحيث يتم المرور من العصر القوطي الذي انتهى سنة ٧١١ إلى عصر الملكين الكاثوليكيين في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. وحتّى عندما كان يتم التوقف عند المرحلة الأندلسية، فإن العبارة المستعملة عادة هي «إسبانيا المسلمة»، وليس الأندلس، وذلك تماشياً مع المفهوم الذي أعطته الفاشية للوطن، والذي تلخصه عبارة «السمو لإسبانيا» (Arriba España).

(٥٧) يعلق نائب العمدة «مانويل أنخل باروسو» على مسار هذه الأيام الثقافية قائلاً: «كانت دورة ٢٠٠١، =

في الوقت الحاضر لم تعد أيام الثقافة الإسلامية التي تنظم بالمنستير مقتصرة على ما يعرفه المسجد من لقاءات ثقافية وحلقات للذكر يتخللها أداء الصلوات، بل إن القرية كلها، بصغيرها وكبيرها تعيش الحدث، وتعود إلى جذورها الإسلامية عندما كانت من أهم حواضر الأندلس(٥٨). وهكذا يفد الزوار من كلّ القرى المجاورة، بل حتّى من مدينتي إشبيلية وولبة وبعض المدن البرتغالية، وهو ما يجعل عدد ساكنيها الذي لا يتجاوز في الأصل الستمئة نفر، يتضاعف خمس مرات. وعلى امتداد أربعة أيام تُقطع طرق السيارات وتغلق المحلات التجارية، ويتم إقامة سوق أندلسية يوضع لها باب خشبي كبير، وتنتشر فيها الأكشاك بالعشرات، تبيع كلّ ما له علاقة بالثقافة العربية من أطعمة وألبسة وحلي(٥٩)، ويرتدي الباعة وحتّى بعض سكان القرية ألبسة أندلسية. وتعلق المستعربة الإسبانية فاطمة رولدان المديرة العلمية لهذه الأيام عن كلّ هذا بالقول: «أهمية هذه الأيام الثقافية أنها تُخرج الحضارة الأندلسية من الجامعة، حيث الاهتمام بها في الوقت الحاضر، إلى الشارع، فالناس يريدون العيش في قرية أندلسية من القرن العاشر أو الحادي عشر، في جو السوق والمسجد وخيمة الحكواتي، ومعرض السجاد وغيرها. وبطبيعة الحال هذه الأمور تجعل رجل الشارع العادي يكتشف ماضيه الذي يمتزج بماضي العرب ويتشبث به، وهذا ما يعني أن تظاهرة من هذا النوع وبهذه الخصوصيات، لا يمكن أن تلقى نفس القبول في فرنسا أو ألمانيا أو بلد أوروبي آخر ذي مرجعيّة مختلفة»(٦٠).

إن قيام تحالف غرب ـ غرب، وإقصاء العالم الإسلامي، كما يدعو إلى ذلك اليمين المتطرف في إسبانيا، يخدم مصلحة الإرهابيين.

ومما يلفت انتباه زائر القرية أثناء هذه الأيام الثقافية، صوت الآذان المنبعث من المسجد الموجود في قمة الجبل، وصداه تحمله مكبرات الأصوات إلى جنبات القرية، والمسلمون وجلهم

= قد برمجت في مطلع شهر تشرين الأول/أكتوبر، أي أسابيع قليلة بعد تفجيرات ١١ أيلول/سبتمبر، لذا تخوف بعض المشاركين من فشل الدورة، كما إنَّ بعض سكان القرية من المحافظين لم ينظروا بارتياح إلى تنظيمها، لكننا قلنا إن أيام الثقافة الإسلامية ستنظم مهما كلف الثمن. وقد بدأ بعض المتعصبين بسبب ذلك يلقبونني ابن لادن!، لم أبال بالأمر. دعونا فرقة موسيقية يهودية سفردية للمشاركة في تلك الدورة. غايتنا هي إشاعة ثقافة التسامح، إن هذه الأيام تمثل بالنسبة لنا لحظة لقاء مع جذورنا، إنّه حدث يعيشه الكبار والصغار، أول أمس لما كنا نضع اللافتات في الشوارع، اقتربت مني طفلة صغيرة وقالت بعفوية، هل هذه اللافتات لأيام الثقافة الإسلامية؟ وهذا يعني أن أطفال القرية تربوا في كنف هذه الأيام».

(٥٨) تحس أن القرية استعادت بعضاً من مجدها الغابر، عندما كانت في القرن التاسع الميلادي من أهم حواضر غرب الأندلس، كما يؤكّد ذلك الجغرافي الأندلسي أبو عبيد الله البكري الذي يضيف أن ما تحصل لديها من جبايات عام ٨٢٢ قدر بـ ٣٥ ألف دينار.

(٥٩) من بين الأكشاك التي وقفت أمامها أثناء حضوري إحدى دورات هذه الأيام الثقافية، واحد يبيع منشورات تعرف بعدالة القضية الفلسطينية، وتفضح سياسة إسرائيل والولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

(٦٠) من الحوار الذي أجريته مع فاطمة رولدان، المنستير، ٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥.

من الأسبان، وبعضهم من المتصوفة يعكفون على أداء صلواتهم فيه. وقد سألت أثناء وجودي هناك عجوزاً إسبانياً من القرية عن الآذان وبماذا يوحي له، فأشار بإصبعه إلى منزل في سفح الجبل الذي شيد عليه المسجد وهو يقول: «كنت أقيم في ذلك المنزل، عندما كان يصلني آذان الفجر، وفي سكون الصباح الباكر، أسافر في الزمن، أحس أنّني من الزمن الأندلسي»، ثمّ يضيف وعلى وجهه علامات الانشراح: «إن هذا المسجد قاوم الزمن لأكثر من ألف سنة بفضل البركة»(٦١) (قال كلمة البركة بالعربية). تعلق الدكتورة «فاطمة رولدان»: «لا أظن أن هذا الآذان له إيحاء ديني بالنسبة لغير المسلمين. إنّه بالنسبة إليهم مجرد نداء جميل وصوت رحيم له بعد عاطفي، يحرك الأحاسيس ويذكر بالماضي. وقد يمثل دعوة إلى التأمل والروحانية، وربما يكون حافزاً للتآخي بين الديانات»(٦٢).

وبالفعل فهذا التآخي تلمسه من إيواء سكان القرية من المسيحيين في بيوتهم لزوارها من المسلمين الذين يتوافدون إلى المسجد، خصوصاً خلال الأيام الثقافية، والذين لا يتسع لهم الفندق الوحيد الموجود في القرية.

لكن إذا كانت قرية المنستير قد تصالحت مع ماضيها الأندلسي الذي عثرت فيه على هويتها المفقودة، بفضل مسجدها، وبفضل أيام الثقافة الإسلامية التي تنظمها، فإن قرى ومدناً أندلسية أخرى لم تحقق ذلك بعد، حيث إن الاحتفالات السنوية التي تنظم فيها والتي يطلق عليها اسم «أعياد المسلمين والنصارى»، ويشارك فيها الآلاف من الكبار والصغار، تكون في الكثير من الحالات سبباً في إشاعة ثقافة التعصب وعدم التسامح، بسبب بعض المظاهر المسيئة للإسلام، وللحضارة الأندلسية، وللرسول (ﷺ)(٦٣). وتنظم أشهر هذه الاحتفالات في مدينة غرناطة، آخر معاقل المسلمين التي سقطت بيد النصارى، حيث تمجد ذلك السقوط والملكين الكاثوليكيين اللذين كانا وراءه، كما تنظم في مدن أخرى مثل مالقا، والمرية، وإشبيلية، ناهيك بتنظيمها في أغلب قرى شرق الأندلس. وقد طالب عدد من الهيئات الإسلامية في إسبانيا بإلغاء هذه الاحتفالات جملة وتفصيلاً، بينما طالبت هيئات أخرى بالإبقاء عليها(٦٤)، لأنها أصبحت جزءاً من الموروث الثقافي للقرى والمدن التي تنظم فيها،

---

(٦١) من الحوار الذي أجريته مع أنطونيو فلوريس، المنستير، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥.

(٦٢) من الحوار الذي أجريته مع فاطمة رولدان.

(٦٣) يتم ذلك بالأساس في قريتي «بوكايرينت» (Bocairent) و«بني جامع» (Beneijama) التابعتين لإقليم فلنسية، حيث يرمز للنبي بدمية من الخشب والورق المقوى طولها ثلاثة أمتار، يتم تفجيرها في نهاية الحفل. غير أن احتفالات السنة الماضية (٢٠٠٦)، وبسبب الضجة التي أثارتها تصريحات البابا سالفة الذكر، ثمّ بسبب الرسوم المسيئة للرسول التي نشرتها صحيفة دانمركية سنة ٢٠٠٥، تمّ حذف هذه الدمية من الاحتفالات.

(٦٤) من بين الهيئات التي طالبت بإلغائها هناك، الفدرالية الإسبانية للهيئات الإسلامية التي أدلى رئيسها فليكس هريرو بتصريح للصحافة، جاء فيه إن هذه الاحتفالات: «لم يعد لها مكان في إسبانيا الديمقراطية»، لأن «إسبانيا اليوم، بديمقراطيتها وتعايشها، لا يمكن أن تقبل بهذه الاستعراضات التي تؤرخ لفوز طرف إسباني مسيحي، على طرف إسباني مسلم»، ومن بين الهيئات التي رفضت إلغاء هذه الاحتفالات، هناك المركز الإسلامي في فلنسية الذي أصدر بياناً جاء فيه: «إن إدانة تلك الاحتفالات والمطالبة بإلغائها يعبر عن جهل بطبيعتها، فهي دليل على التعايش، لذا يجب أن تستمر» .

خصوصاً أن تاريخ الاحتفال بها يعود إلى القرن السادس عشر الميلادي[٦٥].

إن مكمن الضرر بتقديرنا ليس الاحتفالات بحدّ ذاتها، وإنما الكيفية التي يحاول بها اليمين المتطرف في إسبانيا استغلالها لتكريس ثقافة الحقد والتعصب، وهكذا ففي احتفالات غرناطة، يحملون لافتات معادية للإسلام، ويرددون شعارات تمجد الملكين الكاثوليكيين، كما تمجد أثنار الذي جعلوا منه رمزاً لهم في رفضهم للماضي الإسلامي لإسبانيا[٦٦]. وكان هذا الأخير قد عارض بصرامة سنة ١٩٩٦، أثناء وجوده على رأس الحكومة الإسبانية، حذف أي مظهر من المظاهر المسيئة للمسلمين في هذه الاحتفالات، ووصف المثقفين الذين أصدروا بياناً يطالب بذلك بـ «البلهاء»[٦٧]. وكان موقفه ذاك يتماشى مع موقف عمدة المدينة «خوسي بربيل» المنتمي للحزب نفسه، والذي صرح ساخراً، أنه أولى بموقعي البيان، أن يرتدوا عمامات المسلمين، ويشاركوا في الاحتفالات، بدل المطالبة بتغيير مضامينها.

نظن أن احتفالات المسلمين والمسيحيين التي تنظم في عدد من المدن والقرى الإسبانية اليوم، يمكن أن تشكل فرصة للتآخي بين الأسبان والمسلمين، وكذا فرصة للتصالح مع التاريخ، شريطة أن تغير مضامينها، أو على الأقل تحذف منها بعض المظاهر المسيئة للمسلمين وتاريخهم، والتي لا تمس بشيء جوهر الاحتفالات، ولا يعيرها كبير أهمية من يشارك فيها، وهذه مهمة يجب أن يطلع بها القيمون على مشروع تحالف الحضارات.

خاتمة

ـ كما بين غزو أفغانستان والعراق، استعمال القوة ليس هو الخيار الأمثل لمحاربة الإرهاب، من هنا يبقى مشروع تحالف الحضارات، خياراً صالحاً للوقوف بوجه هذه الآفة. والواقع أن كون البادرة جاءت من إسبانيا، يعطيها نوعاً من المصداقية، **أولاً** لكونها البلد الغربي الوحيد الذي يشكل من الناحية التاريخية حلقة وصل بين العالم الغربي والعالم العربي الإسلامي، بسبب الميراث الأندلسي الذي نجح الأسبان في إضفاء الصبغة الغربية على جذوره المشرقية، بعدما نقلوه إلى بقية أنحاء أوروبا منذ القرن الثالث عشر الميلادي؛ و**ثانياً** لوجود حكومة اشتراكية في السلطة، يعي قادتها أهمية هذا الميراث، كما يعون أنه لا يمكن أن يتحقق

---

(٦٥) حضرنا بعض هذه الاحتفالات وتحدثنا مع المشاركين فيها من كبار وصغار، فتبين لنا، أن أغلبهم لا يعطيها أي دلالة تاريخية أو سياسية، وإنما فقط يريدون من خلال المشاركة فيها، قضاء لحظات احتفالية ممتعة، والدليل أن أغلبهم يفضل أن يمثل دور المسلمين أثناء الاحتفالات، ويرتدون لباس هؤلاء وأسلحتهم. ورغم أنها تنتهي دائماً بانتصار المسيحيين، وهي ترمز في ذلك إلى نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس، فهي تختتم بالعناق بين المسلمين والمسيحيين.

(٦٦) «Granada: La Ultraderecha ataca al grito de: !Viva Aznar!,» Tecnología y otros pensamientos, 31/3/2006.

(٦٧) من بين هؤلاء نذكر فيدريكو مايور سراغوثا، المدير العام السابق لليونسكو، وخوسي سراماغو الحاصل على جائزة نوبل في الآداب، والمفكر الإسلامي روجيه غارودي، ومانويل بيمنتيل وزير الشغل الإسباني السابق الذي جمد نشاطه داخل الحزب الشعبي، بسبب اختلافات أيديولوجية عميقة مع القيادة الحالية للحزب.

السلام العالمي، من دون إقامة تحالف متين مع العالم العربي الإسلامي؛ و**ثالثاً** لأن إسبانيا اكتوت بنار الإرهاب ذي التوجه الإسلامي، بشكل لم يسجل في أي بلد أوروبي آخر. وكانت تفجيرات مدريد وراء تغييرات عميقة في الخريطة السياسية الإسبانية، كما في صورة المسلم داخل المجتمع الإسباني.

ـ وعلى الرغم من اختلاف الأهداف بين اليمين الإسباني المتطرف، والإرهاب ذي التوجه الإسلامي، فإن كليهما يستعمل الآليات نفسها للدفاع عن أطروحته الداعية إلى صراع الحضارات، والتي تتمثل في رفض وإقصاء الآخر والحقد عليه. ويسخر الطرفان الدين وتاريخ الأندلس بشكل أيديولوجي للدفاع عن أطروحته. والملاحظ أن خطابهما هذا يستهدف بالنسبة للحزب الشعبي والمثقفين الذين يدورون في فلكه، بدرجة أولى، الجمهور ذا التكوين المتوسط وما دونه، والذي يسلم دون كبير تمحيص بالمغالطات التي تتضمنها أطروحته حول الميراث الأندلسي، بينما يستهدف بالنسبة للأصوليين الإسلاميين، جمهور الأميين وأنصاف الأميين الذين لا يزالوا على الفطرة، ويسلمون بتلك النظرة الرومانسية إلى الأندلس، التي تبكي زوال «الفردوس المفقود». كما يسلمون بالأطروحة التي يروج لها الأصوليون القائلة «لما كنا متشبثين بالدين صنعنا حضارة عظيمة»، رغم أن واقع الحضارة الأندلسية، يؤكّد أن ازدهارها لا علاقة له بنظرة الأصوليين المتزمتة إلى الدين الحنيف، والدليل إننا نسجل خلال المرحلة التي وصلت فيه الحضارة الأندلسية أوجها، مثل مرحلة الخلافة الأموية، انفتاحاً دينياً كبيراً، وازدهاراً لعلوم نظر إليها التيار الديني المحافظ دائماً نظرة ارتياب، مثل التصوف والفلسفة والشعر والموسيقى.

ـ تأكيد قادة الحزب الشعبي من أمثال «أثنار» و«أريستغي» استحالة قيام أي تحالف حضاري بين الإسلام والغرب، على اعتبار أن لِكُلّ مرجعيته، تبرير غير مقنع، لأن اختلاف المرجعيّة بل حتّى الأيديولوجيا، لا يتعارض مع قيام تحالف عندما تتعرض المصلحة المشتركة للخطر، ولنا في التاريخ تجارب كثيرة تفنّد هذا التبرير، لعل أشهرها وأقربها منا، من الناحية الزمنية، الحرب العالمية الثانية، حيث تمّ تحالف بين تيارين أيديولوجيين لا يربط بينهما رابط، هما الرأسمالية التي تجسدها الولايات المتحدة والشيوعية التي يجسدها الاتحاد السوفياتي.

ـ قيام تحالف غرب ـ غرب وإقصاء العالم الإسلامي، كما يدعو إلى ذلك اليمين المتطرف في إسبانيا، يخدم مصلحة الإرهابيين قبل غيرهم، لأنه يسمح لهم بترويج خطابهم القائل بعداء الغرب للإسلام، وبالتالي يسمح لهم بكسب دعم وتعاطف أكبر، داخل الأوساط التي يتحركون فيها، مستعملين مبررات من قبيل ضرورة تحالف كلّ المسلمين ضدّ العدو المشترك الذي يمثله الغرب □